

ترجمة: الدكتور دلال عباس

الحُرْفُوش (أحياناً الحُرْفُوش أيضاً) [لقب إحدى الفئات الاجتماعية الدنيا في العصرين المملوكي والعثماني]. تُستخدم هذه التسمية عادةً للإنسان الضالّ، البطال، وفي معظم الأحيان لذي العنق الغليظ، ولقاطع الطريق والأوباش. جمع اللفظة الخرافيش والخرافشة [للاطلاع على جذر هذه اللفظة ومعانيها بالعربية ← الزبيدي، المادة نفسها]. يُطالعنا هذا المصطلح في مدونات الحوادث التاريخية من القرن السابع حتى العاشر الهجريين، وفي غيرها من المؤلفات العائدة إلى منطقة حكم المماليك في مصر وسوريا. والظاهر أنّ آخر مؤلّفٍ استخدم هذا المصطلح هو المؤرّخ ابن إياس (المتوفى سنة 930هـ) [على سبيل المثال ← مج 1، ج 1، ص 294، 311، 319، 327]، وآخر إشارة إليه تعود إلى الحقبة التي فقد فيها رواجه العام، في خلاصة الأثر للمحبي (القرن الحادي عشر الهجري) (← تنمّة المقالة).

شكل الخرافيش بصفتهم أدنى الطبقات الاجتماعية في عصر المماليك تجمّعات لهم في المراكز المدينة في القاهرة ودمشق، وكانوا يُشاهدون أحياناً كمجموعات صغيرة، بصورة مؤقتة في أماكن أخرى كجيمص، وحماة وحلب [← ابن بطوطة، مج 2، ص 664]. اتخذت جماعة الخرافيش، المؤلفة من المتسولين المحترفين من أصحاب العاهات أو الأصحاء، ومهرجي الشوارع، والعاطلين عن العمل، شكل النقابة المهنية، برعاية شيخ يُسمّى "سلطان الخرافيش" [← ابن إياس، مج 5، ص 43]. غالباً، ما تعرّض الخرافيش، بسبب ألسنتهم البذيئة ووقاحتهم، وثيابهم الرثة، ومعتقداتهم الدينية المنافية للسنن والتقاليد، لحملات الكتاب ذوي الفكر التقليدي، ويُعدّون فئّةً منبوذةً، مثيرةً للربح، تقوم أحياناً بأعمال شغبٍ وسلبٍ ونهب [← ابن كثير، مج 13، ص 314؛ ابن تغري بردي، مج 7، ص 378-379؛ الجبري، مج 2، ص 257]. ولتهدئة هذه الفئة المتمردة والمنظمة في الوقت نفسه، وكبح جماحها، كان السلطان شخصياً وكبار الأمراء، يمنحونها راتباً دائماً، وفي أيام القحط والجماعة، يتولّى الأمراء الساسة، والتجار المقترون، وغيرهم من الأشخاص غير الرسميين، مهمّة تأمين الطعام لعدد من الخرافيش [← ابن إياس، مج 1، ص 319].

ترامن اتساع التنظيم الإداري لهذه الفئة (التي أطلق عليها بعض معاصريها اسم "الطائفة"، وإيجاد منصب "سلطان الخرافيش"، الذي تشكّل في أواخر القرن الثامن الهجري، واستمرّ حتى نهاية حكم المماليك. كان "السلطان"، بصفته زعيم هذه المنظمة الجرفيّة هو المسؤول تجاه الدولة عن المحافظة على انضباط أتباعه. يُشير ابن إياس [مج 5، ص 43]، إلى حضور سلطان الخرافيش إلى جانب رؤساء نقابات الصناعيين [كالبنايين والنجّارين والحدّادين]، المشاركين في مراسم مرافقة آخر سلاطين المماليك في أثناء توجّهه إلى سوريا لمحاربة الأتراك العثمانيين [في العام 922هـ].

في العصر العثماني سقط هذا المصطلح من التداول، وحلّ محله لفظ الجُعديّ، الذي كان يُستخدم بالمعنى العام للضالّ، والمتسول [قارن ابن تغري بردي، مج 15، ص 96-97، في نهاية حوادث العام 841هـ، أي بعد أكثر من ثمانية عقود من قضاء العثمانيين على حكم المماليك في مصر في العام 922هـ، الذي استخدم لفظي الخرافيش والجُعديّ بالمعنى نفسه والدلالة نفسها؛ أما الجبري، م.ن، ص.ن، فقد استخدم في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلاديّ الجُعديّة والخرافيش مترادفين]. مع ذلك، قيل في سياق الحديث عن رئيس نقابات أصحاب

الصناعات في دمشق [السيد محمد بن محمد السيد شريف العجلاني المتوفى سنة 1004هـ]: إنه شيخ المشايخ، وصاحب هذا المنصب كان يُسمى في الماضي سلطان الحرافيش، وقد لُقّب شيخ المشايخ احتراماً له وتكريماً (المحبي، مج 4، ص 144-145 [قارن ابن إياس، م.ن، ص.ن، الذي يُعيد تاريخ إطلاق لقب "شيخ المشايخ" التكريمي على "سلطان الحرافيش" إلى أوائل القرن العاشر على أقل تقدير]). بقي لقب شيخ المشايخ ينتقل من جيل إلى جيل في عائلة بني عجلان الدمشقيّة منذ القرن العاشر الهجريّ إلى حين العدول عن تداوله منذ نهاية القرن الثالث عشر الهجريّ/التاسع عشر الميلاديّ.

غير واضحة ماهية العلاقة بين جماعة الحرافيش الدنيا وبين التنظيمات النقابية المحترمة من ناحية أخرى. كذلك ليس من السهل تفسير علاقتها بالتصوّف - كما ظهر في تجليات هذا المشرب الشعبيّة - إن أبرز مظهر يربط الحرافيش بالتصوّف [شُعيب بن عبد الله المصريّ المعروف بالشيخ] عُبيد الحرفوش أو الحُرَيْفِيش (المتوفى سنة 801 [810 أو 811هـ])، الذي انتقد أثره الأدبيّ المسمّى الروض الفائق [الذي يحتوي 56 مجلساً من مجالس وعظه] في ما يخصّ القضايا المذهبية والأدبية (← الحُرَيْفِيش، ص 415-416، الفهرس). أتباع عُبيد - الذي كان مشهوراً بالصلاح وبأنه صاحب كرامات، وفي الوقت عينه كان قولاً وفعلاً كالحرافيش - كانوا يؤمنون به إيماناً شديداً (السخاوي، الضوء اللامع، مج 5، ص 20). بعد ذلك، أصبح الكتاب يستشهدون بأقوال من كتابه، ويعدونها مستنداً، وأحياناً ينتقدونها (معبري مليباري، مج 2، ص 267؛ البيروتي الشافعيّ، مج 1، ص 340؛ الدميّاطي، مج 2، ص 274). كتب عُبيد في شعر له نقله السخاوي (كتاب التبر المسبوك، ص 349) أنّ الحرافيش على الرغم من أنّهم فقراء، وقيمون في المسجد بشياهم الرثة، ويقنعون باللقمة، لكنّ لأنهم لا يكذبون ولا يراؤون، فإنّ أخطاءهم مغفورة.

ما من شك في أنّ الحرافيش اسم أحد المجموعات المدينيّة في العالم الإسلاميّ، كانت تُطلق عليهم في العصور المختلفة أسماء متنوعة، وكانوا مشكّكين من الكسبة [المفلسين] والفلاحين الفقراء الذين لا مأوى لهم، ومحترفي التسوّل، وكانوا يتعيّشون من السرقة، والسلب والنهب، والتسوّل، وفي العصور المختلفة كانوا يُصاحبون أهل الحكم - السلطان أحياناً وأحياناً الأمراء - [← ابن بطوطة، مج 1، ص 62]. بإمكاننا مقارنة هذه الجماعة من حيث نقاط الاختلاف والتشابه، بمجموعات العيّارين الأقدم (← العيّار/ العيّارون*)، والأحداث*، وكذلك بجماعة متأخرة تُدعى الرُعمار. الإشارة الوحيدة إلى هذه المجموعة في الآثار الأدبية، تُشاهدها في كتاب ألف ليلة وليلة (مج 4، ص 138-140) في قصة "الحرفوش والطّباخ".

المصادر والمراجع: [ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط. محمد مصطفى، القاهرة، 1402-1404هـ/ 1982-1984م؛ ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، ط. محمد عبد المنعم العريان، بيروت 1407هـ/ 1987م؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة؟ 1383-1392هـ/ 1963-1972م؛ ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت 1411هـ/ 1990م؛ ألف ليلة وليلة، ط. ماكسيميليان هاييخت، برسلاف 1240هـ/ 1825م، ط. أوفست القاهرة 1423هـ/ 2003م؛ محمد بن درويش البيروتيّ الشافعيّ، أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، ط. مصطفى عبد القادر عطا، بيروت 1418هـ/ 1998م؛ عبد الرحمن الجبرتيّ، تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بيروت، دار الفارس، [لاتا.]; شُعيب بن سعد الحُرَيْفِيش، كتاب الروض الفائق في المواعظ والرقائق، دلهي: مكتب إشاعة الإسلام،

[لاتا.]; عثمان بن محمد شطا الدميّطي، إعانة الطالبين على حلّ ألفاظ فتح المعين، بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، [لاتا.]; محمد بن محمد الزبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس، ط. علي شيري، بيروت 1414هـ/1994م؛ محمد بن عبد الرحمن السخاويّ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة: دار الكتاب الإسلاميّ، [لاتا.]; نفسه، كتاب التبر المسبوك في ذيل السلوك، بولاق 1296هـ/ 1878م، ط. أوفست، القاهرة، [لاتا.]; محمد أمين بن فضل الله المحبّي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، بيروت: دار صادر، [لاتا.]; زين الدين بن عبد العزيز المعريّ المليباري، فتح المعين، في حاشية عثمان بن محمد شطا الدميّطي، [إعانة الطالبين على حلّ ألفاظ فتح المعين، م.ن.]; لمزيد من الاطلاع ←
أجنبيّ.....

/و.م.برينر⁽¹⁾ (د. الإسلاميّة)/

(1) W.M.Brinner.